

محمد بن النزهي

الدين والتدين

مفهوم الدين

لفظ

الدين يطلق في اللغة العربية على معان متعددة:

فيطلق تارة ويراد منه الجزاء ، ومنه قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾^(١) أي يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .
ويطلق تارة ثانية ويراد منه الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾^(٢) أي في حكمه وسلطانه .

ويطلق تارة ثالثة ويراد منه العادة والشأن ، ومنه قول الشاعر:

تقول وقد ذرأت لها وضيئي أهذا دينه أبدا وديني؟^(٣)

• أمين عام مجمع البحوث الإسلامية - استاذ بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

(١) الآية ٤ من سورة الفاتحة .

(٢) في الآية ٧٦ من سورة يوسف عليه السلام

(٣) ذرأت: أي القيت . والوضي بطن عريض منسوج من سبور أو شعر . أو لا يكون إلا من جلد . والبيت للمثقب العبدي وصححه في اللسان (ذرأت)

بالدال المهملة .

أي شأنه وشأني .

ويطلق رابعة ويراد منه الطاعة والانقياد ، يقال : دان له ديناً وديانة : أي خضع ، وذلّ ، وأطاع .

ويطلق خامسة ويراد منه ما يتدين به الانسان ، يقال : دان بكذا ، أي اتخذ ديناً وتعبد به (١) .

وكلامنا في هذا البحث عن الدين بالمعنى الأخير ، وهو ما يتدين به الانسان ، ولا شك أنه بهذا المعنى يدخل في مفهومه المعنى الذي قبله مباشرة ، وهو الخضوع والذل والطاعة ؛ لأن من دان بدين يخضع لتعاليمه ، وينقاد لها ، ولا يجحد عنها ، كما أنه ليس بعيداً عن سائر المعاني الأخرى ؛ لأنها كلها تدور حول معنى واحد ، هو الانقياد والخضوع لسلطان معين .

أما الدين في نظر علماء الأديان ، فقد عرفه بعضهم بأنه : « وضع إلهي سائق لذوي العقول - باختيارهم إياه - إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل ، وهذا يشمل العقائد والأعمال » (٢) .

ومعنى هذا ، أن لفظ الدين عند هؤلاء ، لا يتناول إلا الأديان السماوية : كاليهودية والمسيحية والإسلام ، أما غيرها من الأديان التي اصطلح عليها بعض الناس دون أن يكون لها صلة بالسماء ، فليست ديناً في نظرهم .

ويرى فريق آخر من العلماء : أن الدين هو « عبارة عن الإيمان والعبادة مهما كانا ، فإيمان الوثنيين دين . أو هو عبارة عن الإيمان بقوة أو قوات سائدة تحكم الأرض ، وعن عبادة تلك القوى أو القوات ، فيقال : دين حق ، ودين باطل » (٣) .

ومعنى هذا : أن الدين عند هؤلاء يشمل الأديان السماوية وغيرها من الأديان التي هي من صنع البشر ، ولا تمت إلى الله بسبب ، وقد يشهد لهذا ، أن الله سمى الديانات غير الحقّة ديناً فقال : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٤) ، وقال : فيما أمر به نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - أن يقوله لكفار قريش : « لكم دينكم ولي دين » (٥) .

والواقع أنه لا خلاف بين الفريقين : فالفريق الأول نظر نظرية خاصة ، والفريق الثاني نظر نظرية عامة ، ونحن في بحثنا عن الدين والتدين كظاهرة اجتماعية لا نقصد المعنى الخاص ، لا موسعاً بحيث يشمل الأديان السماوية كلها ، ولا مضيقاً بحيث يقتصر على الإسلام وحده ، وإنما نقصد المعنى العام الذي يشمل الأديان كلها : سماويةا وأرضيةا .

(١) انظر مادة (دين) في القاموس المحيط ، والمجمع الوسيط .

(٢) دائرة المعارف للبيستاني مادة (دين) .

(٣) المرجع السابق

(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٦ من سورة الكافرون

مفهوم التدين

أ

التدين ، فهو التمسك بعقيدة معينة ، يلتزمها الانسان في سلوكه ، فلا يؤمن إلا بها ، ولا يخضع إلا لها ، ولا يأخذ إلا بتعاليمها ، ولا يجحد عن سننها وهدايا . ويتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفاً ، حتى إذا ما بلغ الضعف غايته ، عدّ ذلك خروجاً عن الدين وتمرداً عليه .

الدين والتدين كظاهرة اجتماعية :

وظاهرة الدين والتدين ، وجدت في المجتمعات الإنسانية من

أول وجود الإنسان ، وبقيت إلى يومنا هذا ، وستبقى بعد الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا أردنا أن نعرف كيف بدأت هذه الظاهرة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أي وضع انتهت ؟ فلست أجد خيراً - في هذا الباب - من كلمة أنقلها عن رسالة التوحيد ، للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، لتبني أماننا الطريق لمعرفة هذا كله ، ولتكون ركيزة نعتمد عليها في تجلية هذا الموضوع وتوضيحه .

قال - رحمه الله - « كل انسان - مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته - يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة من أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين ، تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فطلبها من حسها تارة ، ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها ، وهي طريق النظر ، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر : فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات ، لكثرة نفعها ، أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبت الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من بدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تماثل في أفراد كل نوع ، وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع إلهاً » .

« ولكن كلما رقى الوجدان ، ولطفت الأذهان ، ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقي الخلاف ذائعاً ، والرشد ضائعاً » .

« اتفق الناس في الاذعان لما فاق مقدّرهم ، وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الاذعان له اختلافاً كان أشد أثراً في التقاطع بينهم ، وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ، مع اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم » .

« ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ، ولم يمنح من تلك الفطرة ما مُنِحَهُ النحل وبعض أفراد النمل - مثلاً - من الألهام الهادي الى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ، ولم يفض عليه - مع ذلك الشعور - عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقى به في مظارح النظر تحمله الأفكار في مجاريها ، وترمي به إلى حيث يدري ولا يدري ، وفي كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده » .

« أفهل مني هذا النوع بالنقص ، ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأعطها في منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه » .

« الانسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلا مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ويسامي بقوته ما يعظم أن يسامي من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمرٌ ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبهرين ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين » .

« من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته .. فأقام (الله) (١) له من بين أفراد مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم ، وأبد ذلك - زيادة في الانتاع - بآيات باهرات ، تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، ويذل الجاهل ، ويصطدم بها عقل العاقل ، فيرجع إلى رشده ، وينهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه ، يطرُقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذهان له ، ويستوي في الركون لما يميثون به المالك والملوك ، والسلطان والصلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضل والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري ، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون (٢) » .



معنى هذا باختصار

أولاً:

أن ظاهرة الدين والتدين ظاهرة عامة تشترك فيها كل الجماعات البشرية على مدى تاريخها الطويل ،

(١) زدنا على النص لفظ الجلالة ليستقيم الكلام بعد حذف بعض عبارات رأينا إمكان الاستغناء عنها .
(٢) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨٠-٨٢

وعلى اختلاف ما بينها من بداءة وحضارة ، وتختلف وارتقاء .

ثانياً:

أن مبعث هذه الظاهرة ، إحساس كل فرد في جماعة بأن هناك قدرة أو قدراً تتصرف فيه وفيما حوله تصرفاً يلفت النظر ويبهز العقل ، فيستشعر من نفسه ميلاً قوياً لمعرفة مصدر هذه القدرة التي لها عليه وعلى غيره هذا الأثر العجيب .

ثالثاً:

أن العقول حينما تبحث عن الحقيقة دون أن يكون لها مدد من السماء ، لا يمكن أن تتفق على شيء واحد تؤمن به وتخضع له ، وإنما تتشعب بها السبل ، فإذا هي مختلفة في ذلك اختلافاً كبيراً :

هناك عقول مشت على فطرتها فوصلت إلى معرفة الله ، وهناك عقول مشت على غير فطرتها فنظرت نظرة ساذجة إلى ما حولها من مصادر القوة والتأثير فيها أو فيما يحيط بها ، فإذا بجماعة تعبد الشمس وأخرى تعبد القمر ، وثالثة تعبد النار ، ورابعة تعبد الشجر ، وخامسة تعبد البقر .. وغير هؤلاء كثيرون يعبدون آلهة شتى ، وكلها مخلوقات لله ، لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً .

رابعاً:

أن هذه العقول التي وصلت بفطرتها إلى الحقيقة الحققة وهي الله ، لا تستطيع — مهما سميت وارتقت — أن تستقل استقلالاً تاماً بمعرفة كل ما يتصل بالله ، وما غيبه عنها من عالم الآخرة التي نوقن أنه نهاية المطاف بعد هذه الحياة الدنيا ، كما أنها لا تستقل بمعرفة الخير والشر ، وما يجب أن يلتزم به الإنسان في حياته الدنيا : من عبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، حتى لا يضل ولا يشقى .

خامساً:

لما تقدم ، اقتضت حكمة الله — تعالى — ورحمته بعباده ، أن يرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، يدعوهم إلى الدين الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

هؤلاء الرسل بالنسبة لأممهم — كما يقول الأستاذ الامام — بمنزلة العقول من الأشخاص^(١) ، وأزيد على هذا فأقول: إنها العقول الهادية التي لا تفضل، والواعية التي لا تغفل ، لأنها عقول أعددها الله وهياها لتخليص البشرية من أباطيلها وأوهامها، وانقاذها من شرورها وآثامها، وهدايتها إلى ما فيه خيرها وسعادتها .



ولكن

على أي صورة بدأت العقيدة الدينية ؟ هل بدأت ساذجة فكانت خرافة ووثنية ؟

أو بدأت واعية مدركة للحقيقة الإلهية ؟

لقد افترق الباحثون في تاريخ الأديان في ذلك إلى فريقين :

(١) رسالة التوحيد ص ٩١

- فريق منهم « يذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الانسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته .
- هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب (التطور التقدمي أو التصاعدي) الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم ، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء (١) .
- وفريق آخر « يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة يجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .
- وهذه هي نظرية (فطرية التوحيد وأصلاته) التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الانسان ، وعلم النفس (٢) » .

ولا نريد أن نطيل بذكر مناقشة هذا المذهب أو ذاك ، فقد تولى هذه المناقشة أستاذنا الفاضل المحرم الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه (الدين) ص ١٠٣ - ١٠٨ بأسلوب شيق ومنطق بارع . وكلمة الفصل في هذا الموضوع هي قوله في نهاية المطاف :

« هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا ياناً شافياً يطمئن اليه القلب عن ديانة الانسان الأول . أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية ، فانه سوف يجد فيها ما يشدّ أزر القائلين بأولية العقيدة الالهية الصحيحة ، لا في الغريزة فحسب (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (٣) بل في التطور الزمني كذلك ، فهذه النصوص تنادي بأن الناس بدعوا حياتهم مستقيمين على الحق ، مؤتلفين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً بعد ذلك (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) (٤) ، وأن استمرار هذا الاختلاف واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) (٥) وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الانسانية الأولى لم تترك وشأنها ، تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر ، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر هو أول الأفاضل الملهمين ، وأول المؤمنين الموحدون ، وأول المتضرعين الأوابين (٦) .



(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٢

(٢) المرجع السابق .

(٣) في الآية ٣٠ من سورة الروم

(٤) في الآية ١٩ من سورة يونس

(٥) صحيح البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المبركين ج ٣ ص ٤٩١

(٦) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٨

وإذا

كانت النتيجة هي أن الديانات السماوية هي الأصل ، وأن لها السبق في الوجود الديني ، وأن ما اعترأها من شوب أو خلل وما زاحمها من ديانات وضعية باطلة ، إنما هو محض شلوذ وانحراف صدر عن فئات ضالة مضلة .. إذا كانت النتيجة هي هذا ، فلنا أن نتساءل :

هل بدأت هذه الديانات السماوية واستمرت تنزل ديانة إثر ديانة على نمط واحد ، ثم انتهت وهي على هذا النمط دون تغير ولا تطور ؟

أو أنها بدأت على نمط خاص ، ثم تطورت إلى أنماط مختلفة ، ثم انتهت بنمط آخر هو نسيج وحده ؟

الواقع أن الأديان السماوية كلها جاءت متفقة ومختلفة : متفقة في أصولها ، مختلفة في فروعها ، كلها يتفق على الجوهر والحقيقة .. على أصول العقيدة ، وأصول الشريعة : فهي جميعاً تدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والإيمان بكل ما جاء عنه ، والأخذ بكل ما يصل بالإنسان إلى الخير ويباعد بينه وبين الشر .

والقرآن الكريم يصرح بوحدة الديانات السماوية كلها في الأصل والجوهر ، فيقول : «

«تَرَع لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وصى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (١) .

أما فروع الشرائع وتفصيلها ، وصورها وطقوسها ، فتختلف فيها الديانات السماوية اختلافاً طاهراً .

فمثلاً فريضة الصلاة ، جاءت بها كل الشرائع السماوية ، ولكنها تختلف صورها من شريعة إلى شريعة : فهي في الشريعة الإسلامية قيام ، وقراءة ، وركوع ، وسجود على كيفية معروفة ، وفي الشريعة المسيحية ترانيم وتراتيل تتلى على هيئة خاصة .

ومثلاً فريضة الصيام : جاءت بها كل الشرائع السماوية ، كما يصرح بذلك قوله تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٢) ولكنها تختلف صورتها من شريعة إلى شريعة ، فالصوم في الشريعة الإسلامية : امساك عن الطعام والشراب والنساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وفي الشريعة المسيحية : امساك عن أكل كل ذي روح من الحيوان وما يتولد منه في وقت معين .

.. وهكذا تختلف الشرائع السماوية في أمور كثيرة كلها فرعية غير أصلية وذلك في الحقيقة - كما أوضحناه - اختلاف في الأسلوب والمنهج لا في الجوهر والهدف ، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى :

(١) في الآية ١٣ من سورة الطورى

(٢) الآية ١٨٣ من سورة البقرة

« لِيَكْلِمَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْعَوْنَ وَمِنْهَا جَا » (١)

أما لماذا اتخذت الشرائع السماوية في أصولها واختلفت في فروعها؟ فذلك لأن الأصول ثابتة لا تتغير بحال من الأحوال ، فالفقه - سبحانه - هو الله بذاته وصفاته ، لا يتغير ولا يتحول أبداً ، والرسول - في كل أمة - هم الرسل بما يجب لهم وما يجوز في حقهم ، والكتب المنزل - على مدى تاريخ الرسالات - هي الكتب المنزل بما لها من قداسة وتعظيم ، وكل ما جاء عن الله حق ثابت ، وصدق لا ينقض ، وأصول الأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات ، أدب متبع وطاعة ملتزمة ، ولا يحيد عن ذلك إلا ضال هالك .

أما الفروع : فهي التي يتغيرها التغيير والتبديل ، ويتناولها التعديل والتطوير ، لأنها ليست أكثر من تطبيق للأصول في صور شتى ، ولا بد لهذه الصور أن تختلف تبعاً لاختلاف أحوال المكلفين واستعدادهم ، وما يحيط بهم من عوامل وظروف كثيراً ما يكون لها دخل في التكليف : فما يصلح لزمان قد لا يصلح لزمان آخر ، وما يلائم طبيعة قوم قد لا يلائم طبيعة قوم آخرين .

وإذا نحن تتبعنا الأطوار التي مرت بها البشرية في مراحلها المختلفة ، نجد أنها أشبه ما تكون بالأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته ، فهو يبدأ بمرحلة الطفولة ، ثم يتدرج في مراحل أخرى ، ينمو فيها جسمه وعقله حتى يصل إلى مرحلة الرجولة الكاملة والنضج التام .

والبشرية في أول مراحلها بدأت كالطفل : فيها ما فيه من الضعف وعدم الاحتمال ، فكان لا بد لها في هذه المرحلة من غذاء روحي يتناسب مع طبيعتها وقدرتها على تقبل هذا الغذاء وهضمه ، ثم هي بعد ذلك تمر - متدرجة في مراتب الكمال - بمراحل متتابعة كل مرحلة تزيد فيها عن سابقتها نمواً وقدرته وتقبلاً ، وهي في كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى نوع من الغذاء الروحي يتناسب مع ما هي عليه من درجة النمو والقدرة والتقبل وأخيراً تبلغ البشرية تمام نضجها وغاية رشدتها فتحتاج في هذه المرحلة الأخيرة إلى غذاء روحي يلائمها كما ونضجها .

هذا الغذاء الروحي الذي أمدّ الله به البشرية في أطوارها ومراحلها المختلفة هو الدين ، وحملته هذا الدين إلى البشرية هم الأنبياء والمرسلون ، ومجموعة هذه الرسل - كما صورهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في حديث له - بنو آيت واحد يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم (٢) . صورهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بهذا في حديث له قال : « مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَنِيَانًا فَحَاسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَائِهِ فَجَعَلَ النَّاسَ يَطْلُفُونَ بِهِ وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ هَلَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ . قَالَ : فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا حَاكِمُ النَّبِيِّينَ » (٣) .

(١) في الآية ٦٨ من سورة المائدة

(٢) الإسلام عقيدة وفريضة للمرحوم الاستاذ الفخيم محمود فسلطوت ص ٢٧

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، واللفظ لمسلم .

ومعنى هذا : أن الديانات السماوية تكون في مجموعها صرحاً واحداً ، اشترك الأنبياء جميعاً في بنائه ، فما من نبي بعث إلا وقد وضع فيه لبنة ، حتى اذا شأرف البنيان النهاية ولم يبق منه إلا موضع لبنة بها يتم صلاحه ويكمل حسنه ، بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم مبشراً بالاسلام وداعياً له ، فكان عليه الصلاة والسلام — بما جاء به من الدين الاسلامي — اللبنة المتممة للبناء ، المكملة لحسنه وجماله ، وبه أتم الله صرح الديانات التي تعاقبت جيلاً بعد جيل .



وهكذا شاعت حكمة الله تعالى أن يرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بدين أعلى ما يكون هداية وإرشاداً ، وأسمى ما يكون تشريعاً وتبصيراً ، وختم الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الرسالات ، وجعلها للناس كافة ، بعد ما كان النبي يرسل إلى قومه خاصة .

ولكن لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتم الرسالات ؟ ولم كانت للناس كافة ولم تكن لقومه خاصة ؟ .. نجيب على ذلك فنقول :

أما لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسالات ؟

فذلك أمر بدهي وطبعي ، فما دما قد عرفنا أن الاسلام قد بلغ الغاية في هدايته وتشريعه ، ضرورة أنه جاء لاسعاد البشرية في أرقى مراحلها وأوج كمالها ، فأى شيء يرجى للبشرية بعد ذلك ؟

... أي شيء يرجى لها بعد الكمال الذي لا كمال بعده ؟ ... لا شيء إلا أن تمشي البشرية معتصمة به إلى نهايتها إذ ليس بعد الكمال غاية ، ولا بعد بلوغ المنتهى نهاية ، والله تعالى يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ دِينَتُكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١) .

وفي تقرير أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين يقول الله عز وجل : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » (٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الرِّسَالَاتِ وَالنَّبُوءَاتِ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ » (٣) .

وأما لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، بل وللانس والجن جميعاً ؟
فذلك لعدة أمور :

(١) في الآية ٣ من سورة المائدة

(٢) في الآية ٥٠ من سورة الاحزاب

(٣) رواه الامام أحمد بسنده الى انس بن مالك رضي الله عنه .

أولاً:

أن الإسلام جاء ديناً وسطاً بين غيره من الأديان السماوية^(١)، فيه من كل دين أيسره وأحسنه ، وأكثره ملائمة وتمشياً مع الطبائع المختلفة لبني الإنسان ، فمثلاً عقوبة القتل العمد في الشريعة اليهودية القصاص ولا بد ، وفي الشريعة المسيحية العفو ، وأكاد أقول ولا بد^(٢) ، فجاءت شريعة الإسلام مخير ولي الدم بين القصاص والعفو ، وكان هذا أمراً وسطاً ، يتمشى مع الطبائع المختلفة : فمن طبائع الناس طبائع لا يشفى غلها إلا القصاص ، ومنها طبائع هينة لينة ، تميل إلى التسامح وتأخذ بالعفو ، وفي شريعة الإسلام ما يسائر طبيعة هؤلاء وأولئك .

ومثلاً: الزواج، أطلقت الشريعة اليهودية ، ولم تقيده التوراة بعدد معين من النساء ، وقصرته الشريعة المسيحية على امرأة واحدة ، لأن الأصل فيها هو التبتل ، فإذا كان ولا بد فزوجة واحدة تكفي .

أما الشريعة الإسلامية ، فقد جاءت بتشريع وسط بين هذا وذاك ، تشريع يرضي رغبة من يريد التعدد ، ولكن بحدود وقيود ، فأباح له أن يجمع بين أربع زوجات ولا يزيد ، بشرط أن يعدل بينهن ولا يحور ، وقصرت من لا يأمن على نفسه الجور على زوجة واحدة فقط .

ولقد يشهد لوسطية الإسلام في تشريعه قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**^(٣) وقوله : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**^(٤) مع ما استقر في العقول من أن خير الأمور أوسطها .

ثانياً :

أن البشرية — كما قلنا — قد بلغت رشدها فأصبحت تقاد بالعقل وحده ، ولم يعد ينفع معها مجرد الخوارق والقوارع المألجة أو شبه المألجة ، فجاء الإسلام ديناً منطقياً ، رفع من قيمة العقل ، وأعطى للإنسان الحرية التامة في التأمل والتدبير في كل ما يكلف به ، فلا يؤمن بعقيدة يدعى إليها إلا بعد تروُّ واقتناع ، ولا يتبع تشريعاً يشرع له إلا بعد نظر يهديه إلى سلامة التشريع واستناده إلى المنطق السليم والدليل القويم ، ثم هو بعد ذلك يدم التقليد ويعني على المقلدين لآبائهم وأحبارهم ورهبانهم ، فيقول عز من قائل :

(١) ذكر الاستاذ الامام الشيخ محمد مهدي في تفسيره لقوله تعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ، ان الوسط معناه العدل والغيار ، الذي هو الوسط بين الافراط والتفريط ، أي المتوسط بينهما ، ثم قال موضعاً ذلك : **و ان الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليدهم بالمادة المضنة ، فلام له الا المظوظ الجسدية كاليهود والمفرقين ، وقسم تحكم عليه تقاليدهم بالروحانية الغالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثني الهند اصحاب الرهاضات .** وأما الآية الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح ، وحق الجسد ، فهي روحانية جثمانية ، وان شئت قلت : انه أعطاهما جميع الحقوق الإنسانية ، فان الانسان جسم وروح ، حيوان وملك ، فكانه قال . **جعلناكم أمة وسطا ، تملكون العقول ، وتبلغون الكمالين** — تفسير المنار ج ١ ص ٤-٥ .

(٢) انظر الاسلام عقيدة وشريعة ص ٣٢٩ ، وانظر تفسير المنار لقوله تعالى **وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس** ص ٦٠٠ - ٦٠١ .

(٣) في الآية ١٤٣ من سورة البقرة

(٤) في الآية ١٠ من سورة آل عمران

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (١)

ويقول عن بعض أهل الكتاب : « اتَّخَذُوا أَحِبَارَهُمْ رُؤُوسًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » (٢) ولا يعني بانقادهم أرباباً الا طاعتهم طاعة عمياء والتسليم لهم في كل ما يأمرونهم به ويوجهونهم إليه ، فكأنهم - في نظرهم - آلهة تأمر فتطاع ، لأنها تصيب دائماً ولا تخطئ .

وليس من شك في أن ديناً هذا شأنه وذلك منهجه ، يصلح لكل جيل وقبيل من لدن نزوله وإلى أن تقوم الساعة .

ثالثاً :

أن الدين الاسلامي دين واسع الأفق ، وفيه من المرونة واليسر ما يجعله صالحاً لكل الجماعات الانسانية على اختلاف ألوانها ، وأجناسها ، وبيئتها ، وظروفها « فهو يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، ولا يقف - فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه - على لون واحد من التفكير ، أو منهج واحد من التشريع ، وهو بتلك الحرية يساير جميع أنواع الثقافات الصحيحة ، والحضارات النافعة ، التي يفتق عنها العقل البشري في صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العقل ونمت الحياة » (٣) .

وعلى الجملة فالاسلام - كما يقول استاذنا الشيخ محمد أبو زهرة - « دين العقل ، فما من أمر جاء به إلا كان موافقاً للعقل يدركه ويصدق .. سئل أعرابي : لماذا آمنت بمحمد ؟ فقال : ما رأيته محمداً يقول في أمر : افعل ، والعقل يقول : لا تفعل ، وما رأيته محمداً يقول في أمر : لا تفعل ، والعقل يقول : افعل... وإن النظم التي سنّها الاسلام لا تزال بروقها وصفاتها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم ، سواء أكان ذلك في نظام الحكم ، أم في نظام المال ، أم في نظام الأسرة .. فالاسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لحكم الانسانية ، وفيه علاج أدوائها » (٤) .

وما يشهد للدين الاسلامي بأنه دين عام للتقلين جميعاً قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (٥) ، وقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » (٦) . وقوله على لسان نبيه : « وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » (٧) .

(١) في الآية ١٧٠ من سورة البقرة

(٢) في الآية ٣١ من سورة التوبة

(٣) الاسلام عقيدة وحرمة ص ١١ مع تصرف يسير في عبارة الاصل

(٤) المجتمع الانساني في ظل الاسلام للاستاذ الفقيه محمد أبو زهرة

(٥) في الآية ١٥٢ من سورة الاحزاب

(٦) في الآية ٢٨ من سورة مائدة

(٧) في الآية ١٩ من سورة الانعام

هذا ، ولا ينبغي أن يُفهم بحال من الأحوال ، أن قولنا عن الإسلام : إنه أرقى الأديان السماوية وأجملها ، وأكملها وأوفاهما ، وأن تشريعاته وتوجيهاته قد بلغت القمة التي لم تبلغها شريعة من قبل ، فيه انقصاص لغيره من الشرائع السماوية ، معاذ الله أن يكون ذلك قصدنا ، فليس مؤمناً ولا مسلماً من يتقصّش شريعة سماوية أنزلها الله على رسول من رسله ، والله تعالى : يخاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (١) . ويقول مثبِّهاً على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى من اتبعه من المؤمنين :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (٢) .

والذي يجب أن يفهم : هو أن كل شريعة من الشرائع السماوية تعتبر في وقتها - بالنسبة لأتباعها - في منتهى الكمال ، لأنه لا يصدر عن الله تعالى إلا الكمال المطلق ، ولأن كل شريعة - كما قلنا - جاءت مطابقة لحاجات المخاطبين بها ، ولو أنها انحطت عن مستواها ، لعدّ ذلك قصوراً فيها ، لأنها تكون دون الحاجة ، كما أنها لو ارتقت إلى مستوى شريعة نجيء بعدها لعدّ ذلك مجافياً للحكمة والصواب ، لأنها تكون فوق الحاجة ، والحكمة كل الحكمة هو الملاءمة بين احتياجات كل أمة وما يشترع لها ، كما يلائم الطبيب الماهر بين علة المريض وما يصف له من دواء .



موقف البشر من الديانات ومدى تسكهم بها

فما هو موقف البشر من الديانات ، وما مبلغ تسكهم بها ؟
هل استجابت كل أمة لرسولها ؟

وبعد

وهل وقف أتباع كل دين عند حدوده والتزموا بتعاليمه التي دعا إليها ، وتشريعاته التي نص عليها ؟
أو أنهم ارتكسوا في حماة الغي والضلال ، ونكصوا على أعقابهم عائلين إلى نزعات أهوائهم ونزوات شهواتهم ؟
الواقع : أن البشر أمام هذه الديانات فرق شتى :

فريق لزوم الجادة

فانخذ دينه الذي هداه الله إليه سبيلاً في الحياة ، لا يجمد عنه ولا يميل ، فسدوشق طريقه إلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

(١) في الآية ١٣٦ من سورة البقرة
(٢) في الآية ٢٨٥ من سورة البقرة

ولفريق ثان

آمن بدينه الذي أرشده الله إليه ، ولكنه رغم إيمانه به انحرف عنه في سلوكه ظاهراً وباطناً ، وجاهر بالمخالفة ، وبارز الله بالمعصية في غير مبالاة ولا حياء ، فشقي في حياته الدنيا ، وعرض نفسه لسخط الله وعقابه .

ولفريق ثالث

آمن بدينه الذي ارتضى الله له ، ولكنه نافق واتخذ الدين شعاراً زائفاً يموه به على العامة ، ويخدع به من ينظري عليهم زوره وبهتانه ، وقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصنف من المنافقين ، وبين مآلهم وعاقبة أمرهم فقال :

«يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتَلُونَ - أَي يَطْلُبُونَ - الدُّنْيَا بِالْدينِ يَتَّبِعُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الْهَيْبَانِ مِنَ الدِّينِ ، السِّنَنُ مِنْ أَهْلِ مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذُّنَابِ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . أَبِي يَفْتَرُونَ ؟ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرُونَ ؟ قَبِي حَلَفْتُ لَا بُعَثَنَ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فَيَنْتَدِعُ الْحَلِيمُ حَيْرَانٌ (١)» . (٢)

ولفريق رابع

جحد الأديان كلها ، وزعم أنها جميعاً أوهام وأباطيل مستحدثة ، يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه (الدين) ص ٧٣ وما بعدها :

«ذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين مهلوا للثورة الفرنسية إلى أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية ،

حتى قال (فولتير) : ان الانسانية لا بد أن تكون قد عاشت قروناً مطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحُرث ، والنحت ، والبناء ، والحداثة ، والنجارة ... قبل أن تفكر في مسائل الديانات والروحانيات ، بل قال : ان فكرة التأليه انما اخترعها دهاة ماكرون ، من الكهنة ، والقساوسة الذين لقوا من بصلتهم من الحمقى والسفهاء .

ثم بين - رحمه الله - أن هذه النظرة الساخرة إلى الأديان ليست مبتكرة ، وإنما هي ترديد لصدى مجون قديم كان يضكه به أهل السفسة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات .

ثم قال : « انه لم ينقض القرن الثامن عشر حتى ظهر خطأ هذه المزاعم : حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا ، واكتشفت العوائد ، والمقائد ، والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها أن فكرة الدين

(١) رواه القزويني عن أبي هريرة .

(٢) التصرف منا يوم ان النفاق يكون في آخر الزمان فقط والواقع ان النفاق قد تم منذ دخل النبي (ص) المدينة وقد ذكر الله سبحانه بين الاسنان الثلاثة اول سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا ..) الآية بل ان للمنافقين سورة خاصة بهم في القرآن .
للجنة

فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركاتهمجية .
ثم قال : « ... ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت في عصر ما ، أو أن يكون ثمة وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوباً مصنوعاً ، فذلك سائغ في العقل ، بل واقـع بالفعل ، أما فكرة التدين في جوهرها ، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان » .

... وأخيراً هناك فريق خامس

هو فريق العلمانيين الماديين ، الذين لم يستطيعوا أن ينكروا أن هناك ديانات عريقة في القدم ، ولكنهم زعموا — زوراً وبهتاناً — أنها شاخت بمرور الزمن ، ولم تعد صالحة في وقت بلغت البشرية فيه ما بلغت من تقدم في العلم ورقى في الحضارة .

يقول أصحاب هذا المذهب وعلى رأسهم (أوجست كونت) : « ان العقلية الانسانية قد مرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وهذا الدور — في نظره — هو آخر الأطوار وأسمائها ، فبعد أن كان الناس يعللون الظواهر الكونية بقوة أو قوى إرادية خارجة عنها ، انتقلوا إلى تفسيرها بمعان عامة ، وخصائص طبيعية كامنة فيها ، كقوة النمو ، والمرونة ، والحياة ... الخ ، ثم انتهوا إلى رفض كل تفسير خارجي أو داخلي ، واكتفوا بتسجيل الحوادث كما هي ، ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي ، بقطع النظر عن أسبابها وغاياتها ، وعلى هذا يكون دور التفكير الديني يمثل الحال البدائية التي تلهت بها الانسانية في مرحلة طفولتها ، فلما شبت عن الطوق خلعت لتستبدل بها لوباً وسطاً في دور مراهقتها ، حتى اذا بلغت أشدها ، واكتمل رشدتها أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريبية » (١) .

ويعلق على هذا المذهب أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبدالله دراز فيقول : « نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري ، هي أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله في شوط واحد ، قطعت الانسانية ثلثيه بالفعل ، ونقضت أو كادت تنفض يدها منهما إلى غير رجعة ، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه » (٢) .

ثم يمضي في مناقشة هذا المذهب مبيناً أن الأدوار الثلاثة المذكورة « لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب ، وليست كلها دائماً على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما ، ولكنها تنقلب بها الأقدار بين يؤسي ونعمي ، ونحوس وسعود » (٣) .

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٧

(٢) الدين ص ٧٧

(٣) المرجع السابق ص ٧٨

مستحيل أن يقول الدياناء وتلاشي ظاهرة الدين العلم تيار المادّة

كل

ما يقوله الماديون من أن الديانات سوف تزول ، وأن ظاهرة التدين سوف تلاشي أمام تيار المادية الجارف ، وإعصار العلم العاصف، ليس إلا وهماً باطلاً وخيالا صورهلم خداع الغرور العلمي الذي غطى على كثير من العقول .

قال العلماء الماديون ما قالوا في تقرير هذه الفكرة الحمقاء وتبريرها ، ونقول لهم : أي دليل مادي أو عقلي أمكنكم أن تقيموه على صحة ما تدعون ؟ ليس هناك إلى اليوم دليل واحد يؤيد ما تقولون من أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان فلا بد أن يزول الثاني بوجود الأول ، بل على العكس من ذلك قامت أدلة كثيرة مادية وعقلية على أن الدين يسائر العلم ولا يتناقضه ،

بل كلما تقدم العلم خطوة كان الدين عندها ، وكلما كشف العلم عن سر من أسرار الكون ، كلما برزت حقيقة الألوهية المبدعة جليلة واضحة ، وازداد العقلاء المتدينون إيماناً فوق إيمانهم ، بل وكثيراً ما رجع المفتونون بالعلم والمادة عن فتونهم فآمنوا بأن للكون مبدعاً يجب أن تتعلق به القلوب وتذل له الجباه .

ولقد أشار القرآن في وضوح إلى أنه لا تنافي بين العلم والدين ، بل نراه في أكثر من آية يوقظ العقول من رقدتها ، وينبه القلوب من غفلتها ويصيح بالناس في لهجة الأمر الصارم أو المنكر اللاتم « قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (١) » .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢) » .

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٣) » .

وأخيراً يفتح أمامهم كتاب الكون بما حواه من أسرار العلم وعجائب المعرفة التي لا يزال يظهر منها كل يوم جديد وغريب فيقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٤) » .



ولقد

أنصف بعض علماء الغرب وفلاسفتهم فأكدوا أن هذه النظرية القائلة باضمحلال الدين والتدين أمام تقدم العلم، نظرية باطلة، وقرروا أن العلم يخدم الدين ويدعمه ، يقول الدكتور (ماكس نورده) عن الديانات : « أنها ستبقى مابقيت الانسانية، وستطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة (٥) » .

ويقول (آرنست رينان) : « إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نخبه ، وأن تبطل حرية استعمال

(١) في الآية ١٠١ من سورة يونس

(٢) لايتان ٢١،٢٠ من سورة الداربات

(٣) في الآية ١٨٥ من سورة الاخراف

(٤) في الآية ٥٢ من سورة فصلت

(٥) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠

العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الانساني في المضائق الدينية للحياة الأرضية(١) .

ويعلق المرحوم الاستاذ محمد فريد وجدي على قول رينان السابق فيقول :

« نعم مستحيل أن تلتأى فطرة التدين في الانسان ، لأنها أشرف ميول النفس ، وأكرم مواطنها ، ...

فطرة التدين ستلازم الانسان مادام ذا عقل يعقل به القبح والجمال ، وروية يجيئها في الكون والكائنات ، وستزداد فيه هذه الفطرة حياة وقوة على نسبة علو مداركه ، وسمو معارفه(٢) .

... وبعد فقد انتهى المبشرون بالمذهب المادي الى الحقيقة الناصعة ، وقعدوا يلوثون بعد ما أتعبوا أنفسهم في تدعيم مذهبهم والرويج له ، وإذا بهم يرون أنفسهم وعلومهم لا شيء أمام هذا الغيب المحجب بحجب كثيفة وكثيرة ، فلا يكاد العلم يرفع لهم حجاباً إلا ويجلبون من ورائه حجباً ، ولا ينفك البحث يصل بهم الى حقيقة إلا ويلمحون من وراء الغيب حقائق أخرى وأعظم ... وأخيراً يستسلمون لمن هو وراء هذه الحجب والمغيبات ، يدبرها بعلمه وعلى مقتضى حكمته .

نعم رأينا زعماء هذا المذهب المادي يستسلمون أخيراً لواهب الوجود ، ويلوذون برواق الدين هرباً من ماديتهم المتخبطة ، وعلمانيتهم المحيرة ، فهذا (كونت) الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد في آخر أمره متصوفاً عجيباً ، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية : في عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها ، رواية كاملة أعاد قصوها ولم يغير إلا أشخاصها(٣) .

« وهذا سبب ، ينتهي بأن يقول عن المجهول : (انه تلك القوة التي لا تخضع لشيء في العقول ، بل هي مبدأ كل معقول ، وهي المنبع الذي يفيض عنه كل شيء في الوجود) .. أليس هذا المجهول هو بعينه موضوع الديانات ، يميننا الآن باسم آخر على لسان العلم ؟(٤) .



أثر الدين في حياة الفرد والمجتمع

قلنا

فيما تقدم : أن نزعة الدين في النفوس نزعة فطرية ، ونقول الآن : إن ما فطرت عليه النفوس لا يمكن لها بسهولة أن تنفك عنه ، ولو انفكت عنه لكان معنى ذلك أنها انتكست وتردت إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي لا يملك عقلاً ولا نظراً ولا بصيرة .

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠

(٢) دائرة معارف القرن العشرين للاستاذ محمد فريد وجدي ، في مادة (دين)

(٣) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٧

(٤) المرجع السابق

وإذا كنا نرى أناساً قد انخرقوا عن الدين ، فليس معنى ذلك أنهم انسلخوا من فطرتهم ، وإنما هو مجرد ضعف طاريء أمام مغريات المال أو الجسد تارة ، ونزعات العقل تارة أخرى ، ووساوس الوهم تارة ثالثة ، ثم لا يلبث أن يزول هذا العرض الطاريء عن جوهر الفطرة فإذا بها نقية طاهرة على نحو ما فطر الله الناس عليها .

ولقد نعلم أن القرآن الكريم أشار في أكثر من آية إلى أصالة هذه الفطرة في جميع بني الانسان وأن ما طرأ عليها ليس إلا انحرافاً ، لا يلبثون أن يرجعوا عنه عندما تكتنفهم الخطوب ، وتنزل بهم الكروب ، يقول الله تعالى : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا رَجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ اعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ^(١) » .

ويقول : « هُوَ الَّذِي يُسَبِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَاتَّحَدُوا بِهَا جِمَادِيهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهِنَّ دَعْوَى اللَّهِ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْهَوْنَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^(٢) » .

معنى ذلك أن الدين يحقق الكمال الانساني للبشرية ، فإذا هي حادت عنه ، أو تنكرت له فقد حادت عن الكمال إلى النقص ، وتنكرت لما هو مصدر خيرها ومورد سعادتها .

نعم ان الدين يحقق الكمال ويوفر الخير والسعادة للبشرية كلها أفراداً وجماعات ، ونوضح ذلك فيما يلي :

أما بالنسبة للفرد

١ - فالدين عنصر ضروري لتكميل القوة النظرية في الانسان ، فهو يخرج بالعقل والفكر عن سجن الماديات والمحسوسات إلى مجال الغيب الفسيح الذي يجد العقل فيه متعة ولذته من غير حدود ولا قيود ، وبهذا تتسع مدارك الانسان ويفتح عقله على معارف شتى تشق أمامه الطريق إلى ما فيه خيره وسعادته .

٢ - والدين عنصر ضروري لتكميل الوجدان ، حيث يدعو إلى تعلق المخلوق بالخالق ، وهرقان ماله عليه من فضل ومته ، ومراقبته في السر والعلن لاعتقاده أنه يراه ، وبهذا تقوى عند الانسان عاطفة الحب ، والشكر ، والاخلاص ، والحياء ، والأمل ، وغيرها من العواطف التي قد لا نجد لها في دنيا الناس معيناً يغذيها وينميها . وبهذا تسمو عاطفة الانسان نحو الخير دائماً ، فيستقيم على الجادة ، ويمضي في حياته طاهر القلب نقي الوجدان .

(١) الآية ٦٧ من سورة الاسراء

(٢) في الآية ٢٢/٢٣ من سورة يونس

٣ - والدين عنصر ضروري لقوة الإرادة عند الإنسان ، فهو يمدّها بأعظم البواعث والدوافع لعمل الواجب ، ويحصنها بأقوى الوسائل لدفع اليأس ومقاومة القنوط ، وبهذا يمضي الإنسان في طريقه إلى ما تطمح له نفسه من آماني وآمال وهو لا يلوي على شيء .

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

وأما بالنسبة للمجتمع

١ - فالدين بما حواه من هداية آلمية وتشريعات سماوية ، يكفل للمجتمع الإنساني كل عوامل السعادة والأمن والاستقرار ، ولا يكون ذلك أبداً عن تشريع وضعي وضعه فرد أو جماعة لأمة معينة ، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله لا يمكن أن يحيط خبراً بكل ما يوفر للإنسانية سعادتها وأمنها واستقرارها ، لأنه - لاعتبارات وملابسات شتى - قد يرى الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، وقد يظن النافع ضاراً ، والضار نافعاً ، وقد يشرع على وفق ميوله وهواه دون مراعاة للمصلحة العامة ، وينتهي به الأمر إلى تشريع يقوض ولا ينظم ، ويدمر ولا يعمر ، ومن وراء ذلك ضياع وضياح الجماعة التي يعيش بينها .

والله الذي خلق الإنسان ، وركب فيه طبائعه ونوازعه ، وآماله وآلامه ، وإيثاره وأثرته ، ورغباته وشهوته ، هو الخبير بكل علله وأدواته ، والعليم بوسائل شفائه ، وناجع دوائه ، فهو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والقوانين ما يحقق لها أسباب السعادة ، ويوفر لها عوامل العزة والمنعة ، ويهيئ لها كل وسائل الأمن والاستقرار ، وذلك يكون في نطاق دين يدعوها إليه على لسان رسول منها ، ويتعبد بها به على أنه الدين الحق الذي لا يحيد عنه إلا هالك .

٢ - والدين بعد ذلك هو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به ، يحملهم على الأخذ بتعاليمه ، ويدفعهم إلى القيام بما سنّه لهم من تشريع وتنظيم ، ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل ، وليس هناك وراء الذين شيء يهيمن على النفوس ، فلا العقوبات المادية تغني ، ولا سلطان الحاكمين يجدي ، وحرمة النظم والقوانين أيّاً كانت لا يكفلها شيء من ذلك ، وإنما يكفلها ويرعاها شيء واحد هو الضمير الديني الذي ينبع من قرارة النفوس المؤمنة التي تراقب الله في سرها وعلنها .

٣ - والدين يجعل الجماعة الإنسانية على قلب رجل واحد ، يجمعهم على الخير والبر ، ويؤلف بين قلوبهم حتى يكونوا أخوة متحابين متناصحين ، متعاونين ، متكافلين ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذه الأخوة الدينية هي الأخوة الشاملة الكاملة ، التي تجمع بين أجناس شتى : تباعدت أوطانهم ، وتباينت لغاتهم ، وتعددت ألوانهم ...

أما الأخوة التي تقوم على وحدة الوطن أو وحدة اللغة ، أو وحدة اللون أو الجنس فتلك أخوة ضئيلة هزيلة ، بل هي في الواقع محض عصبية وعنجهية ، ومجرد تكاتف على الأثرة والأنانية وحب الذات وكراهية الغير !!

الخلاصة :

والخلاصة : « أن الدين - كما يقول أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز - « يضع للانسانية المنهج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة ، ويضفي عليه صبغة القدسية ، بحيث يصبح سلوك هذا المنهج ضرباً من ضروب الدين ، وباباً من أبواب القربات والعبادات ، فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدأ العدالة ، وتلبية لداعي الفطرة السليمة » .

« وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات بكافين وحدهما لاقامة مدينة فاضلة ، محترم فيها الحقوق ، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل ، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط ، أو السجن ، أو العقوبة المادية ، لا يلبث أن يهمله عن اطمئنان إلى أنه سيفلت من طائلة القانون » .

« ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء ، وهو ضاعف عن التربية والتهذيب الخلقي ، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح لبناء والتعمير ، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي ، يوجهه الخير الانسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد ، ذلكم الرقيب هو العقيدة والايمان » .

« غير أن الايمان على ضربين : إيمان بقيمة الفضيلة ، وكرامة الانسانية ، وما إلى ذلك من المعاني المجردة ، التي تستحيي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ولو أعطيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية . وإيمان بذات علوية رقية على السرائر ، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياة منها ، أو بمحبتها ، أو بنحسيتها ، ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الانسانية ، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواصف وأمرعهما نفاذاً في قلوب الخاصة والعامة » .

« من أجل ذلك كان هذا الدين خير ضمان لقيام التعاون بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ، وكان ذلك ضرورة اجتماعية ، كما هو فطرة انسانية(١) » .